مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الثاني، فيفري، 2023 ص- ص:368-405

الأحوال العامة للمغرب الأقصى في مرحلة الحكم الوطاسي

[875–961هـ / 1471– 1554م]

The history of Morocco in the era of the Wattasid Governance

[875-961 Ah \ 1471-1554 Ad]

د. إبراهيم بودوخة (*)
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 بالجزائر ibrahimboudoukha@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 05 /2022/01 تاريخ القبول: 14 /2022/08 تاريخ النشر: 20 /2023/03

الملخص

شهدت مرحلة الحكم الوطاسي في تاريخ المغرب الأقصى؛ حالات قلقة إثر سقوط الدولة المرينية ، وكان الوطاسيون عاملا قويا في تقويضها ، تمثلت في كونها مرحلة انتقالية بين المرينيين والسعديين ، وعلى الرغم من اتصاف الوطاسيين بجانب كبير من الحزم الإداري والخبرة القتالية ، طيلة مدة زمنية طويلة توارثوها حفيدا عن جد؛ إلا أن التناقضات الكثيرة التي اكتنفت المغرب الأقصى آنذاك إضافة إلى التغيرات الدولية الخطيرة بعد سقوط غرناطة وموجة الاحتلال البرتغالي والإسباني لسواحل المغرب الكبير وقدوم العثمانيين إلى المنطقة ؛ حالت دون استقرار الأمور لهم .

وهذا البحث يهدف إلى تحليل الأحوال العامة للمغرب الأقصى في هذه المرحلة ؛ سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، من خلال دراسة الإشكالية المحورية عن سبب عجز الوطاسيين في الثبات على السلطة والحكم ، وهل كانت المعايير الراسخة آنذاك من استحقاق تولي الأشراف – المنحدرين نسبا من بني هاشم – للمُلك والحكم ، وعدم تمتع الوطاسيين بهذا العامل الحاسم ؛ هل كانت سببا في تجريدهم من كل عنصر فعال في استقرار الدولة بأيديهم ؛ معتمدين في البحث على المنهج التاريخي ، والمنهج الوصفي التحليلي بأدوات الاستقراء والاستنتاج .

الكلمات الدالة: الوطاسيون ، بنو مرين ، السعديون ، العثمانيون ، البرتغال ، الإسبان، المغرب الأقصى ، اليهود، فاس .

Abstrac: The stage of the Wattasid rule witnessed in the history of morocco ; Concern cases following the fall of the Marinid state, and the Wattasids were a strong factor in undermining it, It was a transitional stage between the Marinids and the Saadians, and despite the Wattasids being characterized by a great deal of administrative firmness and combat

* المؤلف المرسل.

experience, over a long period of time they inherited it as a great-grandson; However, the many contradictions that surrounded Morocco at the time, especially after the fall of Granada and the wave of Portuguese and Spanish occupation ,and the arrival of the Ottomans to the region; It prevented the stability of power in the hands of the Wattasids.
This research aims to analyze the general conditions of morocco at this stage. Politically, economically, socially and culturally, by studying the research problem about the reason for the inability of the Wattasids to establish a kingdom of their own, and whether the reason for this was that they were not among the nobles, or are there other reasons.
In this research, it was relied on: the historical method, and the descriptive analytical method with the tools of induction and deduction.

Keywords: Wattasids, Beni Marin, Saadians, Ottomans, Portugal, Spaniards, morocco , Jews, Fez.

1 . المقدمة :

عندما بدأت بوادر الضعف والترهل تصيب دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ؛ انبرت عائلة بني وطاس إلى التغلغل في مكامن السلطة بفاس ، بعد أن حازوا النفوذ الكبير بمنطقة الريف ، وتشابكت الأسباب وتداعت الأحداث ؛ حتى أودت بقيام ثورة شعبية عارمة أضفى عليها تصدرها من قبل أحد علماء فاس الكبار شرعية كبيرة ، كانت هذه الثورة مُجهزة على حكم المرينيين للأبد .

ومن أسبابها : أن آخر سلطان لبني مرين عبد الحق بن أبي سعيد (823-869هـ=1420-1464م) ؛ قام بمذبحة واسعة ضد الوطاسيين وعلى رأسهم وزيره الوطاسي بسبب بعض الإصلاحات في دواليب المملكة قام بها من دون استشارة الملك، وقد أدت إلى فرار مُحَمَّد الشيخ الوطاسي ممن تبقى منهم من ذوي الجاه والنفوذ ، وبقي متربصا في مدينة آصيلا راصدا ما سيؤول إليه الأمر بعد هذه النكبة ؛ التي تعاطف فيها الرعية بفاس مع الوطاسيين ، وأسفوا لتلك المذابح التي أكدت استعصاء الإصلاح السياسي والإداري للدولة المترهلة ؛ لتنكشف خيوط المؤامرة ضد الوطاسيين بتعيين السلطان المريني بفاس لليهوديين هارون وشاويل وزيرين مع تمكينهما من صلاحيات واسعة في جباية الأموال وفرض الأمن بالقوة بقيادة أحد قادة الشرطة ، الذي تعسف في معاملة الناس حتى وصل به الأمر إلى إهانة آل البيت النبوي

نساء ورجالا ، وكانت حادثة الاعتداء على امرأة شريفة منهم ؛ ضربا وشتما ، الشرارة التي أتت على كل شيء فأحرقته ، مما تسبب في إشعال نار الثورة الشعبية بقيادة أحد العلماء الكبار بفاس ، وانتهت بقتل الوزيرين اليهوديين، وإعدام آخر سلاطين بني مرين يوم الجمعة 27 من رمضان عام 869هـ=1464م ، وتنصيب أحد الأشراف على فاس ليلقى نفسه في مواجهة الوطاسيين الذين انتزعوا منه الملك ونفوه إلى تونس ؛ لتبدأ دولة بني وطاس بعد دخولهم فاسا عام 875هـ=1471م ، ويستمر حكمهم طيلة 86 عاما مملوءا بالتحديات والمواجهات ؛ تولى الحكم فيها خمسة سلاطين [1]:

- أبو عبد الله مُحَمَّد الشيخ بن يحي (875-910هـ = 1471-1504م) .
- مُحَمَّد بن مُحَمَّد الشيخ ، المعروف بالبرتغالي (910-932هـ = 1504-1525م)
- أبو حسون علي بن مُحَمَّد الشيخ (932هـ = 1525م) ، ثم (961هـ= 1554م) وهو آخرهم حكما قتله السعديون.
- أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد البرتغالي (932-952هـ = 1525-1545م).
- الناصر لدين الله مُحَمَّد القصري بن أحمد (952-956هـ = 1545-1549م).

مشكلة الدراسة :

ما هي الأسباب الحقيقية التي حالت دون استمرار الوطاسيين في الحكم على الرغم من القدرات الهائلة التي كانوا يحوزونها ؟

فرضيات الدراسة :

فحص مدى كون : عدم انتسابهم نسبا شريفا ؛ سببا مباشرا لعدم استمرار هم في الحكم ، أم أن هناك فرضيات أخرى متشابكة ينبغي تحليلها وإبرازها .

أهداف البحث :

- المساهمة في كشف خبايا تاريخ الوطاسيين ؛ تلك الدولة المنسية ؛ على الرغم من جهودها المتميزة في الكفاح ضد الاحتلال البرتغالي والإسباني .
- كشف الأسباب السياسية التي حالت دون استقرار الدولة بأيديهم .

- إبراز الأحوال العامة في جوانبها السياسية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدولية ، وكيف كانت عواملها مؤثرة على تدهور المغرب الأقصى عموما ، مما كان سببا في سلب الملك من الوطاسيين .

منهجية الدراسة :

منهج البحث التاريخي ، والمنهج الوصفي التحليلي ؛ بأدوات الاستقراء والاستنتاج .

2 . الحالة السياسية

2 .1 سقوط الدولة المرينية :

لقد قامت الدولة المرينية بالمغرب الأقصى على يد مؤسسها أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني سنة : 668هـ _ 1269 م ، واستقر حكمها قرابة مائتي عام[2] ، وقد حل في سنواتها الأخيرة – ما يحل طبيعيا في الدولة – من الضعف والتضعضع ؛ لاسيما بعد بروز السلطة الثانية الناشئة ؛ المتمثلة في الوطاسيين كقوة تنافس المرينيين في إدارة شئون المملكة طيلة مدة غير يسيرة !! ..

والوطاسيون عائلة كبيرة من بربر زناتة ؛ ظلت تشارك المرينيين في شئون الحكم والملك على مستوى الوزارات وما دونها من المسئوليات التي كانوا يتقلدونها .. وقد سعت هذه العائلة – بكل نفوذها – إلى الاقتيات من ضعف المرينيين للاستزادة من التمكن والتغلغل في مقاليد الحكم ، ولقد ازداد نفوذهم – بشكل كبير – بعد مقتل السلطان أبي عنان المريني ؛ حيث تعاقب على الملك بعده أربعة عشر ملكا في ظرف يسير ! ، ولم يكن من بينهم من يطمئن على نفسه ، أو يستطيع بالأحرى إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد والعباد ! .. وكان آخر هؤلاء : عبد الحق بن أبي سعيد المريني الذي قام بمذبحة رهيبة ضد الوطاسيين [3] ؛ لم ينج منهم فيها إلا قليل ، وعلى رأس الناجين : مُحَمَّد الشيخ الوطاسي وأخوه مُحَمَّد الحلو ، أخوي الوزير يحي المقتول الذي لم يبق في وزارته سوى سبعين يوما ، وعلى الرغم مما قيل في أسباب هذه المذبحة ؛ إلا أن يد اليهود فيها غير بعيدة ، ولذلك آلت إليهم الوزارة عقب هذه الأحداث مباشرة ..

وهكذا يتخلص عبد الحق المريني [4] بكل دموية من معارضيه المشاركين له في الملك.. لكن الأمر الغريب أنه أسند الوزارة الكبرى بعد ذلك إلى اليهوديين « هارون » و « شاويل » انتقاما من أهل فاس ! [5] ؛ الذين أصبح جمهورهم يتعاطف سياسيا مع الوطاسيين ؛ لا سيما مُحَمَّد الشيخ الوطاسي المعارض السياسي والعسكري لعبد الحق المريني وحكومته ، والذي اتخذ من مدينة أصيلا مستقرا ومنطلقا له ..

وبدأت أوامر اليهوديين « شاويل » و « هارون » تنفذ على أهل فاس المسلمين ! ، وكانت في مجملها ؛ تعسف في استعمال السلطة ، ومصادرة لحقوق الناس ، واستيلاء على أموال التجار تحت غطاء الضرائب حينا ومن دون غطاء أحيانا كثيرة..

وبدا واضحا جليا بوادر الانفجار الاجتماعي بسبب الاحتقان المتزايد للغضب والرفض ، والمتراكم من غياب العدل والمساواة ، وضمور العدالة الاجتماعية ، وإهدار الحقوق..

وحدث ما كان متوقعا .. حين انفجرت ثورة شعبية في فاس ؛ قضت على اليهوديين وعبد الحق وحلفائهم جميعا وذلك سنة : 869 هـ 1464 م ، وفر من كان متورطا في إذلال الشعب خوفا من حكمه النافذ الغاضب ..

وذلك أنه في هذه السنة نفسها ؛ قام الإمام الفقيه أبو فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي خطيب مسجد القرويين ، بقيادة الثورة في فاس ضد السلطان عبد الحق وحلفائه من اليهود ، وكانت نهايتها أن تم تنصيب الشريف مُحَمَّد بن علي ابن عمران على فاس ، وإعدام السلطان المريني وجميع مناصريه من اليهود [6] ..

2 . 2 الظروف السياسية عند تولي الوطاسيين السلطة

وأصبحت فاس قرية خاوية على عروشها كأن لم تحكم بالأمس [7] ..

وساد التفكك العام والانقسام السياسي والوطني كامل أرض المغرب الأقصى ، حيث ظهر ذلك جليا في قوتين سياسيتين وعسكريتين متصارعتين حتى النخاع ؛ هما الأشراف ، والوطاسيون ، وقد دام صراعهما الدامي قرابة ست سنوات..

الأشراف كانت دعايتهم قائمة على الانتساب إلى الأصل النبوي .

وأما الوطاسيون فكانت دعايتهم تعتمد إظهار المقدرة الفائقة في تسيير الشئون العامة سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، وكانوا يرون أنهم السبب المباشر في تقويض ملك عبد الحق المريني، وأنهم بذلك الورثة الشرعيين للحكومة التي أسقطتها الثورة في فاس ، وقد كان ارتقاؤهم على الدعاية السياسية المكثفة والمتواصلة ، وعلى العصبية العسكرية .. وقد مضى زعيمهم مُحَمَّد الشيخ الوطاسي على ذلك النهج ، حتى استولى _ بعد سقوط مدن كثيرة بيده _ على فاس سنة : 875 هـ _ 1471 م ..[8]

وفي غياب الحوار والمصالحة بين العائلات الحاكمة المتصارعة ، وحلول بدلهما منطق القوة والدم والاصطدام في حل المشاكل والأزمات الوطنية ؛ انقسم المغرب الأقصى إلى وحدات منفصلة تنهش بعضها بعضا ؛ فكانت حركة النوراش التي تزعمها الشرفاء الراشديون بالشمال الغربي للمغرب ، حيث أسسوا مدينة شفشاون ، وحركة الجنوب التي تزعمها عمرو بن سليمان المعروف بالسياف أحد تلامذة الشيخ الجزولي ، والتي كانت سببا في فتنة عمياء دامت عشرين سنة [9]، واستمر الصراع بين مدينتي دبدو ، وفاس ، وكان مريرا[10] ..

وفي خضم هذه الأحداث التي ملؤها الحروب والفتن ، والتي راح ضحيتها الكثير من أبناء المغرب الأقصى ؛ كان الجميع – مع مواجهتهم لبعضهم بعضا – يواجهون من ظهورهم عدوا خارجيا لا يرقب فيهم إلا ولا ذمة ، ولا يفرق بين وطاسي أو مريني أو سعدي أو شريفي!..

ووقعت في تلك الظروف : الحادثة الكبرى ، المتمثلة في سقوط مدينة غرناطة بالأندلس سنة : 897هـ _ 1492م ، وبعدها : قدمت عائلة بني الأحمر من غرناطة، وسائر المسلمين المهجرين بعدهم إلى أرض المغرب ، فلم يجدوا مع ما حل بهم من محن إلا محنا أشد مما كانوا عليها !! [11]..

وقد تزامن مع كل ذلك اهتمام متزايد ومركز من قبل البرتغاليين على سواحل المغرب الأقصى ؛ لا سيما الجانب الأطلسي منها ، وابتداء من أواسط القرن الخامس عشر الميلادي ؛ احتلوا على التوالي المدن المغربية الساحلية: القصر الكبير (1458 م) ، وآنفا (1469 م)،

وأصيلة ، وطنجة (1471 م) ، ومسات(1488 م) ، وأغادير (1505 م) ، وآسفي (1508 م) ، وأزمور (1513 م) ، والجديدة (1514 م) ، وأغوز (1519م)[12]..

وقبل ذلك ذكر السلاوي[13] في تاريخه تسلسل سقوط المدن بالمغرب الأقصى مع شيء من الاختلاف ؛ حيث ذكر سقوط كل من المدن التالية بيد النصارى البرتغال والإسبان: سبتة (818هـ) ، قصر المجاز (862 هـ) ، طنجة (869هـ) ، وأصيلا وآنفا وبعض سواحل السوس (876هـ) ، والجديدة (907هـ) ، والعرائش وآكادير وبعض سواحل السوس الأقصى (910هـ)، وآسفي (912هـ) ، وأزمور (914هـ) ، والمهدية (920هـ) ..

وتوالت الأحداث إلى أن توفي مُحَمَّد الشيخ سنة : 910هـ _ 1504 م [14]، ثم خلفه ابنه مُحَمَّد البرتغالي ، وقد عرف بهذا الاسم لأنه بقي أسيرا في البرتغال مدة سبع سنين ، واستولى البرتغاليون في عهده على ميناء العرائش ، ولكنه هاجمهم وأخذ مدينة أصيلة منهم سنة: 1508 م ، ولما توفي مُحَمَّد البرتغالي خلفه أخوه أبو حسون ، ولكن ابن أخيه أحمد بن مُحَمَّد خلعه واستولى على العرش .. وفي عهده اشتد ساعد أمراء مراكش السعديين ، وقامت بينهما حروب طاحنة أبادت الكثير من الطرفين ، ثم تصالح الفريقان على اقتسام البلاد! ، ولكن هذا الصلح كان قصير الأمد ؛ فقد تمكن السعديون أخيرا من القبض على الوطاسيين إلا أن أبا حسون المخلوع فر إلى الجزائر ، واستنجد بالأتراك ، فأنجدوه بجيش دخل به فاسا ، وكانت بين السعديين وبين أبي حسون حروب ؛ كان النصر فيها حليف السعديين ، ودخلوا فاسا ثانية سنة : 1549 م[15] وألقوا القبض على أبي حسون وقتلوه ، وبموته انقرضت أسرة بني وطاس التي كان بيدها الحكم مدة ثلاثة وثمانين عاما [16] ، وسيطر السعديون على أرض المغرب كلها في 13 أيلول سنة: 1554 م [17] ..

3 . الأسباب السياسية لعدم استمرار الوطاسيين في الحكم

وعلى الرغم من استحواذ الوطاسيين على عاصمة الملك فاس ؛ وخضوع أهلها ومن جاورهم وإذعانهم لهم ؛ إضافة إلى طول تواجدهم في السطلة من قبل ومعرفتهم لتفاصيل تسيير الدولة وتحريك دواليبها ؛ إلا أنهم فقدوا التحكم في زمام الأمور ، وآل الوضع بهم إلى الزوال عن

الحضور التاريخي ، ولعل الأسباب المفضية إلى ذلك والتي يمكن رصدها بالاستقراء والاستنتاج ؛ ترجع إلى جملة عوامل ، منها :

3 .1 اعتمادهم أساليب غير راشدة في التسيير ورعاية الشأن العام .

وقد كان من وزراء الوطاسيين : الناصر بن مُحَمَّد الشيخ ، عرف عند عامة فاس بالكدّيد – بالكاف المعقودة والدال المشددة – وأبي علاقة ؛ لقب بذلك لكثرة سفكه للدماء وإقدامه عليه ، فكان يقتل الناس ويجزرهم عليه ، وكذا بمكناسة أيام وزارته بها [18] .

ووقفوا – أي الوطاسيون – مكتوفي الأيدي أمام موجة الغلاء والجوع الكبير التي عمت سنة 927 هـ بعد جفاف سنة 926هـ ؛ ثم الوباء العام الذي حصد الناس سنة 928هـ وما بعدها ، بل كانوا يصادرون السواقي الخاصة بالشرب والسقي من الرعية بعد تهيئتهم لها ، كما صادروا ساقية الشيخ الغزواني ؛ فاضطر للهجرة نحو مراكش داعيا عليهم بزوال ملكهم [19].

بل كانت أيدي بعض حكام الوطاسيين تحاول أن تمتد إلى أموال التجار والأغنياء بعد قتلهم ؛ لولا وقوف الفقهاء لهم بالمرصاد [20].

بل قد كان منهم من يقتل أقرب الناس إليهم من أهل المشورة دون ذنب أو جريرة[21].

وقد كان من السلطان نفسه تحريض للصوص على استئصال وتقتيل لسكان النواحي ومصادرة أموالهم ، كما حدث لطلبة علم مع ساكنتهم [22].

3 . 2 تعسفهم مع المرجعيات الدينية في المجتمع ؛ حيث ساءت علاقاتهم مع العديد من العلماء ومشايخ الصوفية، مما ساهم في نزع الشرعية الأخلاقية عن سلطتهم.

وقد كانت النكبة التي حلت بالشيخ الغزواني وأصحابه ؛ حيث سلسوا بالأغلال والأصفاد إلى فاس من قبل الوطاسيين خوفا منهم على ملكهم من إقبال الناس عليه ؛ وكانت مؤثرة في الناس إلى درجة تمني زوال ملكهم على فاس ، وبعد إطلاق الشيخ الغزواني وأصحابه من السجن تعرض لمضايقات كثيرة اضطرته إلى الخروج عن فاس مهاجرا [23]..

وقد كان بعض سلاطين الوطاسيين يتأخر عن صلاة العيد ، والناس ينتظرونهم مع المشايخ والعلماء ؛ حتى يخرج وقتها ، ويصلونها ظهرا [24].

3 .3 تأخرهم في إعادة تأسيس وتنظيم جيش جديد بعد سقوط المرينيين ؛ بل ظلوا يحملون شارات المرينيين ولباسهم حتى كأنهم هم [25] ، وكذا : اعتمادُهم على المتطوعة في مقاومة احتلال المدن الساحلية من قبل البرتغال ، وقد آل أغلب المتطوعين في الجهاد إلى الاستشهاد أو الأسر [26].

3 .4 عدم استمرارهم في تجديد الدولة العميقة التي كانت بحوزتهم على الرغم من فداحة النكبة التي حلت بهم ، وقد كان الناس ومشايخ الصوفية يعدونهم امتدادا لبني مرين بل هم منهم ، بل يجب الخلاص منهم [27] .

وقد كانت النكبة التي حلت بهم من قبل السلطان عبد الحق المريني كافية للخلاص من الانتساب إلى بني مرين والمحسوبية عليهم ؛ تنظيما وتجديدا لشارات الملك والسلطنة ، ولكنهم لم يفعلوا ! .

ولعل السبب في ذلك أن استعجالهم لهذا التجديد في أيام آخر سلطان للمرينيين ؛ كان مدعاة لنكبتهم ، فبقوا متهيبين من كل تجديد ! ذلك أن الوزير أبو زكريا يحي بن يحي بن عمر بن زيان الوطاسي " لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة ، وزاد ونقص في الجند ، ونقض جل ما أبرمته قبله الوزراء .. وعزل قاضي فاس الفقيه المصمودي ، وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي ، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة ، وتبين له أن الوطاسيين قد التحفوا معه رداء الملك ، وشاركوه في بساط العز ، وكادوا يغلبونه على أمره ؛ سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم – إلا من حماه الأجل منهم – فتقبض على الوزير يحي وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم مُحَمَّد بن علي بن يوسف ، وأتى الذبح على جميعهم ! وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوما من وزارة يحي بن يحي المذكور " [28].

ويظهر من هذا النص أن الوطاسيين كانوا فعلا يرون ضرورة التمكن التام من مقاليد الدولة العميقة ، ولعل تحركهم السريع هذا كان بتوصية من الوزراء الوطاسيين الذين سبقوهم في الحكم ، لكن تولية اليهوديين من بعدهم الوزارة يظهر مدى تغلغل اليهود في جسم الدولة ، ويحتمل في تحليل مجريات الأمور أن المذبحة التي حلت بالوطاسيين كانت بإيعاز وتدبير منهم .

3 . 5 عدم الأخذ بنصائح العلماء والمصلحين الذين كانوا يحذرون من التدهور العام ، ويرغبون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بل قد وصل الأمر أن اعتقل السلطان ابن مُحَمَّد الشيخ الوطاسي الشيخ الوليّ سيدي أبا مُحَمَّد الغزواني ، وأمر بإشخاصه من تاحنونت إلى فاس مسلسلا بالأغلال في يده هو وأصحابه الذين كانوا من المتطوعة في جهاد البرتغال ! .. وقد حكى المؤرخون أن الإمام ابن غازي بعد رجوعه مريضا من الجهاد التقى بهذا الولي الصالح المعتقل ، وأنه طلب منه الدعاء وهو على تلك الحالة في أغلاله محاطا بالجنود[29] .

وعلى الرغم من مشاركة العلماء في حركة الجهاد ضد المحتلين البرتغال والإسبان لأرض المغرب ؛ فإن وظيفتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يتوانَ عنها الكثير ..

وفي كتب النوازل كان للفقهاء تنديد بالسياسات الفاسدة التي كان ينهجها الحكام والسلاطين والوزراء والقادة في وقتهم ، وما خلّفت من تأزم وتدهور .. [30] ، وأنها تسببت في احتلال مدن كثيرة من قبل العدو [31] ..

3 .6 تشتت جهود الوطاسيين بين : ممانعتهم للامتداد العثماني من جهة الشرق[32]، ولبني الأحمر قبيل سقوطهم من جهة الشمال[33]، ولمقاومة خطر امتداد الاحتلال البرتغالي والإسباني من جهة الغرب ؛ حيث تم استيلاؤهم على معظم الولايات الساحلية المطلة على البحر الأبيض والمحيط ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك [34].

وقد أبلى الوطاسيون بلاء حسنا في مقاومة البرتغال المغيرين على سواحل بلادهم ، وأعطوا نماذج عالية في التضحية والفداء ، كما حدث في معركة المخازن الصغرى بنهر لكوس

بجزيرة المليحة التي قادها ملك فاس – مُحَّد الشيخ الوطاسي – وخسر فيها البرتغاليون ثلاثة آلاف رجل ودمر أسطولهم عن آخره في معركة حاسمة لم يسبق لها نظير في التاريخ [35].

3 .7 تأخر تحالفهم مع العثمانيين إلى غاية استحكام السعديين السيطرة على فاس وأقاليمها بعد مراكش وأحوازها من قبل .

والذي أدى إلى تأخرهم عن ذلك ؛ هو انشغالهم بالجهاد مع الاحتلال البرتغالي للمدن الساحلية [36].

وذلك [37]: أنه قد جاء إلى مدينة الجزائر الأمير أبو حسون الوطاسي أمير بادس وعم السلطان الوطاسي أحمد أبو العباس ؛ لاجئا ، وكان على علاقة بعثمانيي الجزائر منذ زمن خير الدين بربروس ، فعمل على تحريض صالح رايس ودفعه للتدخل في المغرب الأقصى .. فتحرك في أواخر سبتمبر من سنة 960هـ = 1553م : عن طريق البر في جيش ، ضم ستة آلاف جندي مسلح بالبنادق وحوالي أربعة آلاف خيال ؛ وأرسل في الوقت نفسه : أسطولا بحريا مكونا من اثنتين وعشرين سفينة إلى سواحل مليلية ، وفي المقابل : جهز السلطان السعدي مُحَّد الشيخ : جيشا ؛ قوامه : مابين خمس وعشرين وثلاثين ألف فارس ، وسار بهم إلى تازة بشرق المغرب الأقصى ؛ منتظرا قدوم جيش صالح رايس باشا وأبي حسون الوطاسي ، وفي 07 ديسمبر 1553م ؛ حدث اللقاء بين الجيشين ، انتصر فيه صالح رايس انتصارا كبيرا ؛ دفع السعديين للانسحاب نحو فاس .. ليواصل حملته إلى غاية 3جانفي 1554م =961هـ إلى مشارف فاس ، وحدثت معركة أخرى في اليوم الموالي انهزم فيها السعديون ثانية فانسحبوا بعدما قدمت قبائل فاس ولاءها لأبي حسون الوطاسي ، فدخلها هو صالح رايس في الثامن الشهر نفسه ، أي : في الثالث من شهر صفر سنة 961هـ، وجاءت وفود القبائل وأهل فاس لتقديم التهنئة لهما بالفتح والظفر والسلامة ، ولمبايعة أبي حسون الوطاسي ، واستقر الباشا صالح رايس في قصر السلطان ، وفي ظل هذا الموقف الجديد الذي غير موازين القوى ؛ دخل السلطان السعدي مُحَّد الشيخ في اتصالات مع البرتغاليين من أجل دعمه في مواجهة صالح رايس ؛ حيث طلب منهم مده باثني عشر ألف مقاتل برتغالي مقابل مجموعة ضمانات

وتنازلات ، فقبلوا لما رأوه من تنازل أبي حسون الوطاسي للعثمانيين عن معظم الموانئ الشمالية مما سبب قلقا واسعا لدى الإسبان والبرتغاليين .. وقدم على فاس ، وكانت الهزيمة على أبي حسون حيث قتل ، واستولى عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة 961هـ ، وبمقتل السلطان أبي حسون ؛ انقرضت الدولة المرينية ، وكذا الوطاسية بالمغرب .

3 .8 كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية .

من ذلك : ثورة عمرو بن سليمان السياف ببلاد السوس ، حيث أسس لنفسه طائفة تقاتل لأجله وبأمره تسمى : المريدين – بضم الميم ؛ قال الإمام زروق : ما أحقها بالفتح – وزعم علم الغيب ، وادعى النبوة ، وقتل العديد من الفقهاء، والكثير من الناس ، واستمرت فتنته سنوات حتى قتل سنة 890هـ [38]..

ومنها كذلك : الثورات السعدية التي كان زعماؤها ينكثون العهود مع بني الوطاس ، ويغيرون على المدن التي كانت بحوزتهم مستغلين انشغالهم بقتال البرتغاليين [39].

3 .9 استعمالهم لليهود في مناصب الدولة وثقتهم العمياء بهم :

سادت – منذ مدة طويلة – ظاهرة خطيرة في يهود المغرب الأقصى ؛ تمثلت في أن الكثير منهم منذ القديم يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويُقرئون أولادهم القرآن .. ومع ذلك يحافظون على يهوديتهم سرا في بيوتهم وقلوبهم[40] .

وفي فترة حكم أحمد البرتغالي ؛ استعمل عبد الرحمن المنجور وهو من اليهود الذين أسلموا حديثا لجمع مكوس المغرب ، فكان يدفع عن مكس فاس ألف دينار عن كل سنة ، وقيل : عشرون ألف دينار ، ومن أفعال المنجور أنه باع قيسارية فاس – وهو سوق كبير بها – لليهود بعد مشورة السلطان الذي كان في حاجة للمال لمحاربة مُحَمَّد الشيخ السعدي ، واستمر المنجور في غشه وخداعه إلى أن ضبط متلبسا في عهد أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد الوطاسي ، وشهد عليه الشهود ؛ فقتل وصودرت أمواله لحساب بيت المال [41].

وعموما ؛ يتميز العصر الوطاسي بكثرة اليهود خاصة المهاجرين منهم – أي الوافدين من الأندلس بعد سقوط غرناطة – ولعب أغلبهم دورا مزدوجا بين السفارة والتجسس ؛ مثل :

السفير داود رباني ، الذي كان يحمل ثقة سلطان فاس ؛ فكان يأخذ خطابات من إبراهام بن أزمير وأحد يهود فاس ، وكذلك من حاكم طنجة التي كانت محتلة احتلالا برتغاليا ، وكانت هذه الخطابات مرسلة إلى ملك البرتغال ، ويوضح مضمونها : استعدادات الوطاسيين أو السعديين للحرب ، فكان سليمان بن زاميرو ابن أخ إبراهيم زاميرو الذي كان من أغنى تجار مراكش ؛ يكلف نفسه عناء السفر إلى آسفي ليخبر عمه أبراهام باستعدادات السعديين ، وكانوا يحصلون على أموال طائلة مقابل جاسوسيتهم [42] ..

وكان من السفراء اليهود أيضا [43]:

- يعقوب روساليس ؛ الذي أرسل إلى البرتغال لأجل عقد اتفاقيات الهدنة معهم.
- أبراهام القرطبي ؛ رسولا وسفيرا إلى الإسبان .
- يعقوب روط ؛ رسولا وسفيرا إلى لشبونة للتحالف مع البرتغال ، وكان في الوقت نفسه ذا حظوة وافرة لدى السلطان الوطاسي ، حيث استحوذ على التجارة بفاس ، واحتكر لنفسه الاتجار بتوريد المؤن الغذائية للجيش ، وجمع مع ذلك أن عُين شيخا للطائفة اليهودية ..

وكان في اليهود العديد من الجواسيس لصالح البرتغال ضد المغاربة في العهد الوطاسي ؛ ولعبوا دورا قياديا في احتلال الحواضر الدكالية ، وفي نشر نفوذ الاستعمار البرتغالي داخل دكالة، وفي استعمار آزمور ؛ حيث قام يهودي يدعى : يعقوب أديف بالتجسس لصالح البرتغاليين ومساعدتهم في احتلال هذه المدينة ؛ مقابل تأمين قومه وحماية أملاكهم ، ففتح لهم أبواب المدينة على حين غفلة من أهلها ، وكان الحاخام أبراهام بن زاميرو جاسوسا على المجاهدين الذين يقاومون البرتغال [44].

3 . 10 تداعيات الوضع الدولي الجديد بمخاطره الثقيلة التي لا قبل للوطاسيين لها؛ وتمثل ذلك في أمرين اثنين:

3 . 10 . 1 سقوط غرناطة ، وأفول دولة المسلمين بالأندلس :

وكان لهذا السقوط أثره الكبير على المغرب العربي الكبير كله ؛ حيث ساد الوهن والضعف والرعب بين أقاليمه ؛ فبالإضافة لسقوط العديد من المدن الساحلية بالمغرب الأقصى؛ سقطت مدن ساحلية أخرى في قبضة الإسبان كتونس، والجزائر ، ووهران ، وتنس ، وبجاية ، وعنابة ، ومستغانم [45]، قبل أن تتمكن الدولة العثمانية من تحريرها كلية؛ لتنشأ في الأخير دولة قوية بأرض الجزائر فرضت نفسها العشرات من السنين بالبحر الأبيض المتوسط [46]..

إن هذه التغيرات الإقليمية الخطيرة ؛ تركت آثارا كبيرة على الوضع العام بالمغرب الأقصى عموما ، وعلى دويلة الوطاسيين خصوصا ، فقد وجدوا أنفسهم في وسط دوامة من المخاطر والتهديدات يصعب الخلاص من تداعياتها .

3 . 10 .2 تزايد قوة الإسبان والبرتغال بعد اكتشافاتهم البحرية الكبيرة وما تبعها من غنائم لا تخطر على البال .

حيث بدأت حركة الكشوف الجغرافية في أوروبة تأخذ طابع الجد والظفر ؛ ففي سنة: 1460 م اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الأخضر ، وكامل الساحل الغربي لإفريقية ، ثم اكتشف كريستوف كولبس أمريكا عام 1492م، واستطاع ماجلان ما بين عام 1519 م و 1522 م أن يثبت كروية الأرض ميدانيا حيث سافر من إسبانيا إلى الهند عبر المحيطين الأطلسي والهادي [47] ..

4. الحالة الاقتصادية .

4 . 1 الوضع الاقتصادي العام :

وفي ظل هذا الوضع السياسي المعقد والمتأزم والمفكك ؛ اتسعت دائرة الأزمة – بأوضاعها الداخلية والخارجية – لتصب إفرازاتها في الجوانب الأخرى للمجتمع ، لاسيما الاقتصادي منها ! .. ففي الحياة الاقتصادية ؛ لم يكد الأمر يتعدى الجوانب التقليدية الثلاثة المعروفة، وهي : الفلاحة ، والصناعة والتجارة..

" فالفلاحة وإن كانت تمثل النشاط الرئيسي لأغلبية السكان ؛ فإن الفلاح أصبح من العسير عليه أن يتعهد أرضه في جو تسوده الفوضى والاضطراب " [48] .

هذا وقد حافظت المدن الزراعية على طابعها الزراعي ، كمدينة مكناسة المشهورة بالزيتون ..

وبطبيعة الحال لا يمكن الفصل بين الصناعة والتجارة ؛ إذ كل منهما مكمل للآخر.. وقد كانت الصناعة محافظة على ما وصلت إليه في عهد بني مرين ، حيث لم يفقد المغرب الأقصى المهن التقليدية المعروفة كالبناء والزخرفة ، والحياكة والنسيج ، وصناعة الجلود والخشب والنحاس [49]؛ إلا أن التجارة تقلصت حركيتها أحيانا كثيرة بسبب استمرار تدهور الوضع الأمني، وانعدام الاستقرار ، وكثرة المكوس والمصادرات [50] .. الأمر الذي قلل من نمو عملية الاستيراد والجلب بين المدن المغربية ..

وإضافة إلى ما سبق ؛ يُلاحظ بروز ظاهرة أمنية واقتصادية خطيرة ، تمثلت في عمليات بيع السلاح للعدو ، أو للمشتركين في الفتن ، ولم يكن من تشدد الفقهاء ورجال الحسبة ؛ إلا أن يلزموا البائع بالتصدق بالربح تحصيلا للتوبة والمغفرة عما ارتكبه من جرم خطير!! [51] .

4 . 2 الوضع المالي العام :

وقد كان المحتسب [موظف الجمارك] في فاس – آنذاك – يؤدي يوميا ثلاثين مثقالا [3.50 غ من ذهب ؛ مضروب في : 30] للخزينة الملكية [52] ، مع الاحتفاظ بمصادرات عديدة للسلع ..

ومما سبب حالات الاضطراب في الحركة التجارية ؛ كثرة الإمارات والسلطات في كامل تراب المغرب الأقصى ، مما جعل كل إمارة تسك لنفسها سكة ونقودا ، وتلغي فيها ما هو متعامل به في أيدي الناس .. وقد سبب هذا الاختلال وجود ظاهرة النقود المغشوشة [53]، التي هي خرم الاقتصاد وأرضته التي تأكل قاعدته ، وذلك لأنها سبب حقيقي لتقليص التداول بالنقود الجيدة ، وفق القاعدة الاقتصادية المعروفة : أن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة [54] ، وهي " من العادات الضارة التي أساءت إلى الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب ، وقد أفتى ابن عرفة بعقاب المزيّف بسجنه حتى يموت ، وجرى الولاة والعمال على الأخذ بعقوبة قطع

الأيدي؛ لأنها سبب الفساد ، ويظهر أن الغش في العملة انتشر على نحو مريع " [55] ، وعجز الفقهاء والقضاة عن إيجاد حل لها [56].

وقد كانت الدراهم الفضية هي السائدة في العهد الوطاسي ، مع ضرب أجزاء لها متناهية في الصغر من حيث الوزن والأبعاد (0,16غ / 0,17غ) مما يدل على تردي الحالة الاقتصادية للدولة ؛ بسبب الحروب والأوبئة والمجاعات التي أدت إلى غلاء الأسعار ، حتى لجأت الدولة إلى سك الفلوس من النحاس [57].

5 . الحالة الاجتماعية

5 . 1 الوضع الاجتماعي العام :

واتسع الخرق ، وعمت الأزمة السياسية والاقتصادية لتصب جام إفرازاتها في الناحية الاجتماعية .. حيث انتشرت الآفات ، والأمراض الأخلاقية ، وتفككت الأسرة المغربية آنذاك..

وفي خضم هذا التردي ؛ يثار التساؤل عن دور العلماء الاجتماعي لاسيما الفقهاء والقضاة منهم ! .. والنصوص تدل على أنهم بلغ بهم الأمر إلى اليأس في العديد من الأحيان[58]؛ نظرا لشيوع الآفات في قطاعات عريضة في المجتمع [59] ..

5 . 2 تفكك الأسرة :

ومن الأمثلة الدالة على فداحة الوضع الاجتماعي : ما بلغته الأسرة بالمغرب الأقصى آنذاك من التفكك والاختلال حتى لم يتجاسر الفقهاء والقضاة على البوح بفسخ أنكحة الاغتصاب والسطو ، لأنه لو أخذ بهذا لفسخت الكثير من الأنكحة ؛ إشارة إلى درجة اختلال القيم العائلية ، ومدى شيوعها [60] .

5 . 3 شيوع الانحلال الخلقي :

ويذكر الوزان المعاصر لهذه الفترة أنه يوجد بمدينة فاس دُورٌ عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة ، كما يتعاطى بعض الرجال –

دون أن يثير غيظ البلاط – مهنة البغاء ؛ فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخمورا يبيعونها ، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما يشاء بكل طمأنينة [61] ..

ويلاحظ في فاس – كذلك – انتشار المومسات في الفنادق البعيدة عن جامع القرويين ، وكذا الشاذين جنسيا من الرجال ، مع بيع الخمور فيها [62] ..

وقد أدى الشذوذ الأخلاقي إلى سقوط مدن بأكملها بيد الكفار ، كما حدث لآسفي!! [63] .

ومع هذا الانحطاط الخلقي والأدبي نسجل في هذه الحقبة التاريخية – كذلك – تردي الوضع المعيشي ؛ فقد كانت الطبقات المترفة تتناول اللحوم يوميا بالإضافة إلى أطعمة أخرى متنوعة ، في حين أن الطبقة المتوسطة والفقيرة فطعامها اليومي كان يتكون من ثلاث وجبات أغلبها من الخبز والزيتون والفواكه أو الجبن [64] ..

5 .4 شيوع التفكك في المجتمع :

ومن مظاهر التفكك الاجتماعي ، والتباين بين الطبقات : شيوع الغش مع الفقراء دون الأغنياء ؛ لاسيما في تجارة المواد الغذائية ؛ حتى احتيج في كثير من الأحيان إلى مراقبة أهل الحسبة لا أهل السوق [65].

وبالإضافة إلى ذلك ؛ لم يزل المجتمع المغربي في تلك الفترة محافظا على طابعه القبلي ، وقد ظهر الصراع القبلي عسكريا وسياسيا في كثير من الأحيان بين عرب رياح ، وجشم ، والمعقل ، والأثبج ، وعرب الشاوية ، وبين بني مرين ؛ الأمر الذي أدى في النهاية إلى سقوطهم! [66].

وقد ذكر السلاوي أنه بعد سقوط عبد الحق المريني إثر ثورة فاس ، وتولي بعده الشريف أبي عبد الله مُحَمَّد الإدريسي الجوطي ، نقيب الأشراف بفاس سنة : 869 هـ ؛ أنه في عهده تزايد ضرر عرب الشاوية ، فزحفوا إلى بلاد المغرب من أحواز مكناس وفاس سالبين أهلها أموالهم وماشيتهم ، منزلين الرعب والدمار ؛ حتى اضطروا الناس إلى الرحيل عنها [67].

6 . الحالة الثقافية

6 .1 الوضع الثقافي العام :

ولم يخل الوضع الثقافي والفكري من حالة التأزم التي طبعت الوضع العام بالمغرب الأقصى في عصر بني وطاس ..

وقد تأثرت الحركة الفكرية بما سبق أن عرض من أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية؛ إلا أن هذا التأثر لم يأخذ شكل التراجع المطلق ، أو الانحدار الكلي ، وإن كان بقي في كثير من الأحيان على حالة الركود ، وانعدام شيوع الاجتهاد العلمي ، والإبداع الثقافي..

ولعل السبب في كل هذا أن ذلك العصر كان ظرفا للتعفن السياسي ، والتفكك الترابي ، والتدهور الاقتصادي ، والانحطاط الاجتماعي .. مما جعل مهمة رجال الفكر والثقافة، في حالة من العسر تمنع أغلبهم عن العطاء الفني أو الإبداع العلمي ..

وقد تمثلت حالة الركود هذه في تكريس ما أنتجته الحضارة المرينية في الجانب الفكري، حيث ظلت المدارس العلمية التي شيدها سلاطينها في آداء دورها وخدمتها العلمية..

ومن أهم هذه المدارس ؛ مدرسة الصفارين التي بناها السلطان يعقوب ابن عبد الحق، وهو الذي بنى مدرسة أخرى بمراكش ..

وفي فاس وحدها : إحدى عشر مدرسة ؛ منها : مدرسة العطارين ، ومدرسة المدينة البيضاء ، ومدرسة الصهريج ، والمدرسة الكبرى مدرسة الوادي ، والمدرسة المصباحية نسبة إلى الإمام مصباح ابن عبد الله الباصلوتي ، وهو أول من عين للتدريس بها ، وتحتوي هذه المدرسة على مائة وسبع عشرة غرفة ، وتحتفظ بظلة جميلة من الخشب المنقوش كما تمتاز بأناقة دهليزها ومدخل مصلاها[68]، ومثلها في الأناقة بل أفضل المدرسة البوعنانية[69].

وقد كانت مدارس أخرى بمدينة تازى ، ومكناسة ، وسلا ، وطنجة ، وسبتة ، وأنفا، وأزمور ، وآسفي ، وأغمات ، والقصر الكبير ، وغيرها .. وفي مدينة سلا مدرسة متخصصة

في دراسة الطب[70] .. وفي كل مدرسة أستاذ لمختلف العلوم ، فهذا يلقي درسه في الصباح ، وذاك في المساء ..

وفي المدرسة البوعنانية يتقاضى الأستاذ مرتبات حسنة ؛ بينما هي في سائر المدارس ضعيفة ، مما أثر سلبا على الحياة الفكرية في فاس وغيرها [71] .

وقد كان كل طالب من طلبة هذه المدرسة في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات ، أما الآن فلم يبق له غير السكن ؛ إذ خرب عدد كثير من الأملاك والبساتين التي كانت محصولاتها مخصصة لهذا الغرض أثناء حروب سعيد – أي : الأعراب[72]..

ولا شك أن جامع القرويين بفاس ظل يمارس نشاطه العلمي والفكري والثقافي ، وامتد أثره في كامل أرض المغرب الأقصى ؛ خاصة بعد تولي الإمام ابن غازي منصب شيخ الجماعة بفاس ..

وقد وصف الحسن الوزان – ليون الإفريقي – وظيفة هذا الجامع العلمية والإدارية أحسن وصف ؛ فذكر أن " الدروس فيه تبدأ بعد الفجر بقليل ، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس ، وفي الصيف من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحا "[73]..

وذكر أن " هذه الدروس والعلوم لا تسند إلا إلى رجال متضلعين في تلك المواد ، وهم يتقاضون عن دروسهم أجورا عالية حسنة ، وتقدم لهم الكتب والإنارة ، وليس لإمام الجامع وظيف آخر غير إقامة الصلاة ، إلا أنه يمسك حسابا دقيقا للهبات والأموال التي تقدم للجامع، ويوزع الإيرادات الموقوفة على الفقراء سواء كانت نقودا أو حبوبا ؛ فتفرق على مساكين المدينة بمناسبة كل عيد بمقادير متفاوتة حسب تكاليفهم العائلية ..

ولجامع القرويين دخل يومي يقدر بمائتي مثقال ، وقد اعتاد ملوك فاس في وقتنا الحاضر – أي الوطاسيون – أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع دون أن يردوها إطلاقا!!" [74]..

ولم يقتصر الأمر على المدارس الكبيرة فقط ؛ بل " كانت مدينة فاس وحدها تضم قرابة مائتي مدرسة صغيرة – أي من الكتّاب – للأطفال ؛ يتعلمون فيها القراءة والكتابة ،

ويختمون حفظ القرآن في سنتين أو ثلاثا ، ويحذقونه في نحو سبع سنوات ، ثم بعد ذلك يلقنون بعض العلوم تمهيدا لهم للانتقال إلى المدارس الكبرى ، ويلاحظ أن أجر المعلمين في هذه المدارس زهيد جدا " [75] ..

وقد كان للثقافة بعض المواسم ؛ لا سيما المولد النبوي الشريف ، الذي إذا وافق وقته زمن الحرب ، فإنه تعقد هدنة بين الأطراف المعنية بالأمر [76] ..

وقد ظلت العلوم الإسلامية تحتل الصدارة في الحياة الفكرية في هذا العصر ، ونستطيع من خلال فهارس المشايخ كفهرسة الإمام ابن غازي ، المعاصر لهذه الفترة ؛ أن نعرف أهم العلوم والمصنفات التي كانت محل اهتمام في الوسط العلمي [77].. ومن أهم العلوم المدروسة : التفسير ، وعلوم القرآن ، وعلوم الحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ ، والسير ، والرحلات ؛ إضافة إلى العلوم الكونية الأخرى كالجغرافية ، والفلك ، والرياضيات ، والحساب الخ ..

وقد ساهمت المكتبات العامة كذلك في الحفاظ على المورث العلمي والثقافي ، وكان من أهمها : المكتبة السلطانية بفاس، ومكتبة مدرسة الصفارين التي مونت من الأندلس في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق .. ومكتبة سبتة ، التي كانت – كما يصفها المقّري – خزانة للكتب ، والتي لازمها الشيخ الحاج أبو يعقوب الأغصاوي شيخ الكاواني – أحد شيوخ ابن غازي – لازمها ثمانية أعوام [78] ..

وإن المراجع التي تحدثت عن هذه الفترة لا تسعفنا بالتفاصيل الكثيرة عن سائر مكونات الحياة الفكرية والثقافية للمغرب ، ولا سيما عن الأدب شعرا ونثرا [79]، وعن التصوف[80] ، وعن الفن بشتى أنواعه ، وعن العادات والتقاليد والأعراف [81].

6 .2 مظاهر الركود الثقافي :

إلا أن حالة الركود التي أشير إليها ، بدأ يتخللها شيء من التوسع ؛ تمثل في قلة الكفاءات العلمية ، حيث أصبحت ولاية التدريس تعطى بالوراثة في الكثير من الزوايا ! ، ولو

كان الوريث جاهلا غير عالم !! [82] .. ولم تكن هذه الظاهرة بالجديدة ؛ كما نص على ذلك العقباني [83] .

وما زاد الأمر خطورة هو فساد الطلبة والتلاميذ ، وسوء أخلاقهم مع شيوخهم [84] ..

بقيت الإشارة في الأخير إلى أن التفاعل الثقافي بين المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وسائر العالم الإسلامي بقي على حالته من الشكلية وغياب المضمون الواعي ..

وقد كانت الإجازات العلمية والمراسلات متبادلة بين العلماء والفقهاء والأدباء ؛ من ذلك مثلا تلقي الإمام ابن غازي إجازات علمية من طرف الإمام ابن مرزوق الكفيف من تلمسان مراسلة [85] ، ومن الحافظ السخاوي والعلامة الديمي من مصر والثعالبي من الجزائر؛ توسط له بها صديقه الشيخ أحمد زروق البرنسي [86] .

وقد ظلت العائلات العلمية التلمسانية التي اهتمت بالفقه والحديث وغيرهما كعائلة الونشريسي والمغيلي والمقري والعقباني من أبرز العائلات في هذه الفترة ، وكان أفرادها يترددون بين تلمسان وفاس ، ولهم تأثير بارز في الحياة الثقافية [87] .

وعلى الرغم من اتساع الثقافة الشرعية آنذاك ؛ إلا أنها لم تكن موصولة بحل المشاكل الحقيقة التي كانت تهدد المجتمع ، فالوسط الثقافي آنذاك لم يكن يفرق بين الدولة ككيان يجب الحفاظ عليه ، وبين السلطة التي يجب الرحيل بها إذا صادرت حقوق الله أو حقوق العباد .. والثقافة السياسية العامة آنذاك ؛ لم تستلهم من شرائع الإسلام : قواعد الشورى ، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم على نحو يمنع استعمال السلاح في حسم المشكلات السياسية ، بل ظلت قابعة وراء ترانيم صوفية ، ومراسيم شعائرية ، وتحزبات عشائرية لم تزد المجتمع إلا بعدا عن فقه الحياة ! .

ويمكن أن يتأسف كل باحث ؛ إذا حاول جرد الكتب التي كانت محل دراسة أو إجازة من قبل العلماء والفقهاء ورجال التصوف ؛ فلن يجد مقدمة ابن خلدون التي أسس فيها قواعد قيام الدولة وسقوطها ، ووضح أهم أعمال السلطات في تنظيم شئون الأمة وسياستها [88] ..

ثم لماذا نجد في أوروبة – فيما بعد هذا العصر الوطاسي بكثير – تمجيدا لأعمال روسو (1712 – 1778 م)، ولا سيما كتابه : العقد الاجتماعي ، أو أعمال منتسكيو (1669 – 1755 م) صاحب كتاب : روح القوانين ، أو أعمال لوك (1632 – 1704 م) الذي دعا إلى تقييد صلاحيات الملوك .. ولم يقتصر الأمر على التمجيد فحسب؛ بل تعدى إلى المناصرة والمطالبة والمغالبة قبل وفاة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين أنفسهم [89] ..

في المقابل نجد بالمغرب سبقا معرفيا لدى العديد من الإصلاحيين ؛ كأمثل ابن الأزرق (ت : 878 هـ) صاحب كتاب : بدائع السلك في طبايع الملك ؛ الذي حوى تجديدا واسعا لفقه السياسة الشرعية ، والذي تأثر كثيرا بابن خلدون ؛ نجده لا يرتضي المقام بالأندلس لكثرة الفتن ، وانعدام الأمن ، ثم لا يرتضيه كذلك بتلمسان لأسباب أهمها : عدم الاكتراث به ، وبعلمه ، وأفكاره الإصلاحية ؛ حتى يضطر إلى الهجرة ثانية إلى أرض المشرق!![90].

وكالإمام ابن غازي ؛ وقد عاصر الوطاسيين واكتوى بنارهم ، أخرج لأسباب سياسية من بلده مكناسة حتى كان يقول عنها :

طلقت مكناسة ثلاثا * والشرع يأبى الرجوع فيه
ليست بدار سوى لقاض * أو عامل الجور أو سفيه [91].

وهو الذي قال كذلك :

أقمت بمكناسة مدة * أعلم أهلها ما الكلام
فلما توهمه بعضهم * بخلوا به عليّ والسلام [92].

وكل ذلك ؛ يدل على انحسار المرجعية الإصلاحية المستنيرة في الوسط الثقافي المغربي آنذاك ، واتساعها في المقابل إلى اتباع الأهواء والشعوذة والخرافة وتصديقها إذا ما تعلق الأمر بتسيير الشأن العام [93] .

7 . تحليل النتائج :

من خلال ما سبق تحليله من معطيات ، فإن التعليل لعدم استمرار الوطاسيين في الحكم بكونهم ليسوا من الأشراف نسبا على غرار السعديين الذين أعقبوهم ؛ تعليل غير

صحيح ، وإنما هناك جملة من الأسباب المتداخلة والمعقدة ؛ هي التي أفضت إلى عدم تمكن الحكم والسلطة بأيديهم ، وهي التي تم تأكيدها في الخاتمة .

8 .الخاتمة :

توصلت الدراسة إلى أن الأسباب الحقيقية وراء سقوط بني وطاس ؛ تمثلت في الآتي :

1 / اعتمادهم أساليب غير راشدة في التسيير ورعاية الشأن العام .

2 / تعسفهم مع المرجعيات الدينية في المجتمع ؛ حيث ساءت علاقاتهم مع العديد من العلماء ومشايخ الصوفية، مما ساهم في نزع الشرعية الأخلاقية عن سلطتهم .

3 / تأخرهم في إعادة تأسيس وتنظيم جيش جديد بعد سقوط المرينيين.

4 / عدم استمرارهم في تجديد الدولة العميقة التي كانت بحوزتهم على الرغم من فداحة النكبة التي حلت بهم.

5 / عدم الأخذ بنصائح العلماء والمصلحين الذين كانوا يحذرون من التدهور العام، ويرغبون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

6 / تشتت جهود الوطاسيين بين : ممانعتهم للامتداد العثماني من جهة الشرق ، ولبني الأحمر قبيل سقوطهم من جهة الشمال ، ولمقاومة خطر امتداد الاحتلال البرتغالي والإسباني من جهة الغرب ، وغفلتهم عن بداية تحركات السعديين في مراكش.

7 / تأخر تحالفهم مع العثمانيين إلى غاية استحكام السعديين السيطرة على فاس وأقاليمها بعد مراكش وأحوازها من قبل .

8 / كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية .

9/ استعمالهم لليهود في مناصب الدولة وثقتهم العمياء بهم .

10 / تداعيات الوضع الدولي الجديد خاصة بعد سقوط غرناطة واكتشاف أمريكا والطرق البحرية الجديدة .

11 / تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

9 . الاقتراحات :

1/ ضرورة تعميق الدراسة حول الأثر الثقافي والعرقي للمغرب الأوسط على تاريخ المغرب الأقصى عبر التاريخ .

2/ ضرورة الكشف التاريخي لدور اليهود في نهوض أو سقوط الدول المتعاقبة بالمغرب الأقصى .

3/ ضرورة تعميق البحث حول التحالفات التي أبرمها السعديون مع الدول الأجنبية من أجل إسقاط الدولة الوطاسية والحئول دون الامتداد العثماني .

10 . قائمة المراجع :

10 . 1 المؤلفات :

- أبو راس الجزائري : فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ، تحقيق : مُحَمَّد بن عبد الكريم الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط2، 1981.
- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري و مُحَمَّد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء 1955 .
- أحمد بن مُحَمَّد المقري ؛ نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر 1968.
- إيفان هربك : تفكك وحدة المغرب السياسية ضمن كتاب : تاريخ إفريقيا العام بإشراف : ج.ت.نياني ، اليونسكو 1988 .
- أحمد توفيق المدني ؛ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .
- أبو عبد الله مُحَمَّد بن المدني كنون : حاشيته على شرح الزرقاني على خليل ، المطبعة الأميرية مصر ، ط1، 1306هـ ، تصوير: دار الفكر لبنان 1978م .
- أحمد بن سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التعسير ، تحقيق : موسى لقبال ، الشركة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1971 .
- أبو القاسم سعد الله :

أ / تجارب في الأدب والرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، دون ط ، 1983.

ب / أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ط1 .

- ألفرد بل ؛ الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط 2 ، 1981 .
- ابن خلدون : المقدمة ؛ دار القلم ، لبنان ، ط 7 .
- بدر الدين القرافي : توشيح الديباج وحلية الابتهاج ، تحقيق : أحمد الشتيوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1983 .
- حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، مكتبة العصر الحديث لبنان 1992، ط 1 .
- الحسن بن مُحَمَّد الوزان المعروف بليون الأفريقي : وصف إفريقيا ، ترجمة : محد حجي ومُحَمَّد لخضر، دار الغرب الإسلامي 1971 .
- عبد الله كنون :

أ / ذكريات مشاهير رجال المغرب ؛ رقم : 12 " ابن غازي " ، مطبعة كريدماس تطوان ، دون ط، دون ت .

ب / عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، دون تاريخ وعدد الطبع .

- عبد الهادي التازي :

أ / التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، دون معلومات الطبع ، الجزء السابع .

ب / معركة وادي المخازن الصغرى ، مجلة المناهل المغربية ، تصدرها : وزارة الشؤون الثقافية ، الرباط المغرب ، عدد 33 ، ديسمبر 1985 .

- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : مُحَمَّد سعيد العريان ومُحَمَّد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة مصر ط1 ، 1949.

- عطا علي مُحَمَّد شحاتة رية : اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ، دار الكلمة ، سورية، ط1 ، 1999 .
- عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ؛ منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، ط3 ، 2006
- عبد الحميد البطريق ، وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوربي الحديث ، دار النهضة العربية ، دون ط ، 1971 .
- عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، المطبعة الوطنية ، الرباط ، ط1 ، 1932.
- مُحَمَّد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم الكويت ، 1985 ، ط2 .
- مُحَمَّد بن يوسف الزياني : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تحقيق: المهدي بوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1979 ؛ ص : 117 _118 .
- مصطفى أبي ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982.
- مُحَمَّد داود : تاريخ تطوان ، مطبعة كريماديس ، تطوان المغرب ط2 من دون تاريخ .
- مُحَمَّد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ،سلسلة التاريخ رقم 02، 1976 .
- مُحَمَّد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق : مُحَمَّد حجي ، مطبوعات دار المغرب ،ط2 ، 1977 .
- مُحَمَّد الصغير الإفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تحقيق : عبد اللطيف الشادلي ، مطبعة النجاح الدار البيضاء ، ط1 ، 1998 .
- مُحَمَّد بن جعفر بن ادريس الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، طبعة حجرية ، دون رقم ط ، دون ت .

- مُحَمَّد مُحَمَّد جمال : موسوعة الاقتصاد الإسلامي ، دار الكتاب المدرسي ، مصر ، 1400 ، دون ط .
- مُحَمَّد بن أحمد العقباني التلمساني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق : علي الشنوفي ، Extrait du bulletin d'études orientales de l'institut française de Damas tome xix ; 1967
- مُحَمَّد بن أحمد الرهوني : حاشية الرهوني على شرح الزرقاني لمختصر خليل ، المطبعة الأميرية مصر ط1 ، 1306 هـ ، تصوير: دار الفكر لبنان ، 1978.
- مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني ؛ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق : ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط1 ، 1981.
- مُحَمَّد ابن غازي :

أ / إرشاد الحبيب إلى مقاصد حديث الحبيب ، تحقيق : مُحَمَّد التمسماني ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط1 ، 1989 .

ب / التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد (فهرس ابن غازي)، تحقيق : مُحَمَّد الزاهي، دار بو سلامة ، تونس ، ط1 ، 1984.

- مُحَمَّد بن عمر الطمار : تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، دون ط ، 1984 .
- مُحَمَّد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتقديم: الدكتور مُحَمَّد بن عبد الكريم الشركة والوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1981 .
- مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الجزائر وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 م ، دار البعث قسنطينة ، ط1، 1985
- موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط 1 ، 1971

10. 2 المقالات :

- قادة دين : الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ ، مجلة عصور الجديدة ، المجلد 7 ، العدد 77، أكتوبر 2017-2018م ؛ ص : 209-210.
- نذير روابحي ، مُحَمَّد شبوب : استراتيجية الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566م ، مجلة الباحث 2020/04/12 .
- نيرة رفيق جلال فتحي : نقود بني وطاس بالمغرب الأقصى ، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول : مصر ودول البحر المتوسط عبر العصور ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، 15-18أكتوبر 2014.
- نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ، دار الفكر سورية ، ط1، 1985 .
- ناديا ظافر شعبان ؛ الرحالة الاندلسيون كولمبوس واكتشاف أميركا اللاتينية ، دار البلاد لبنان . 2017

10 . 3 المراجع الأجنبية :

- E . Lévi - ProfenÇal : Les Historiens Des Chorfa ; émile Larse éditeur ; Paris 1922 .
- H.-D. de Grammont. (5 juin 1886.) : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), ernest Leroux éditeur Paris 1887
- Mouloud Gaid :L'Algérie Sous Les Turcs ; Éditeur Mimouni, Alger,1991.

11 . الهوامش :

[1] نيرة رفيق جلال فتحي : نقود بني وطاس بالمغرب الأقصى ، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول : مصر ودول البحر المتوسط عبر العصور ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، 15-18أكتوبر 2014 ؛ ج 2 ، ص : 299، ص : 300 . وقد أثبتت الباحثة وجود مسكوكات ونقود ؛ صدرت من هؤلاء السلاطين جميعا .

[2] مُحَمَّد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم الكويت 1985 ، ط2 ؛ ص : 35 -36 ، وحسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، مكتبة العصر الحديث لبنان 1992، ط 1 ، ج3 ، ص:23 .

3 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ومُحَمَّد الناصري ، دار الكتاب الدار البيضاء 1955 ؛ ج 4 ، ص : 97 – 98 . ومُحَمَّد عيسى الحريري : المرجع السابق ؛ ص : 185 . وحسين مؤنس : المرجع السابق ؛ ج 3 ، ص :85 _ 86 . ومُحَمَّد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ،سلسلة التاريخ رقم 02 ، 1976 ؛ ج1، ص : 40 .

4 وعبد الحق هذا أمه نصرانية ، وولي الحكم وهو صبي بعد مقتل أبيه أبي سعيد سنة : 824هـ . انظر : الحسن بن مُحَمَّد الوزان المعروف بليون الأفريقي : وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد حجي ومُحَمَّد لخضر ، دار الغرب الإسلامي 1971 ؛ ج 1 ، ص :318 . و أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : المرجع السابق ؛ ج4 ، ص : 95 .

5 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 98

[6] انظر : السلاوي : مرجع سابق ؛ ج 4 ، ص : 99-100 . ومُحَمَّد عيسى الحريري : المرجع السابق ؛ ص : 186 _ 187 .

[7] وإن كان يحكمها صوريا أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي الإدريسي الجوطي المبايع سنة 869هـ ، طيلة ست سنوات مملوءة بالاضطرابات ؛ مما أدى في الأخير إلى سقوطه على يد مُحَمَّد الشيخ الوطاسي ، وفراره مع عائلته إلى مملكة تونس ! .. راجع : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 114 – 117. ومُحَمَّد بن يوسف الزياني : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تحقيق : المهدي بوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1979 ؛ ص : 117 _118 . والحسن بن مُحَمَّد الوزان المعروف بليون الأفريقي : المرجع السابق ؛ ج 1 ، ص : 312 _ 313 . وحسين مؤنس : المرجع السابق ج 3 ، ص : 88 . ومصطفى أبي ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 ؛ ص : 102 _ 203 .

[8] في السلاوي ؛ مرجع سابق ج4، ص : 117 ، أن الذي عزل نقيب الأشراف وولده الوزير عن الإمامة ؛ هو أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي ، وأنه ذهب مع عائلته إلى تونس كمنفى اختياري ، وبقيت مدينة فاس في يد أخت أبي الحجاج المذكور واسمها الزهراء ، وتدعى بزهور ، مع قائد العسكر المسمى

بالسجيري ؛ إلى أن تولى الأمر أبو مُحَمَّد عبد الله مُحَمَّد الشيخ الوطاسي . – ويلفت الانتباه إلى أنه يوجد مخطوط بعنوان : عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الوسائل ، وهو رجز في تاريخ الدولة الوطاسية ، ناظمه أبو عبد الله مُحَمَّد الكراسي ، نظمها سنة : 950هـ ، وعدد أبياته 483 بيتا ؛ وهو مهم في دراسة أحوال الدولة الوطاسية . مُحَمَّد داود : تاريخ تطوان ، مطبعة كريماديس ، تطوان المغرب ط2 من دون تاريخ ، ج1 ، ص : 146 _ 155 . – وقد ذكر أبو راس الجزائري في : فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ، تحقيق : مُحَمَّد بن عبد الكريم الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط2، 1981 ؛ ص : 181 ؛ أنه ألف : ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس .

[9] ليون الأفريقي : وصف إفريقيا، مرجع سابق ج 1 ص : 107 _ 108 و ج1 ، ص : 123 .

[10] انظر: الصراع بين فاس ودبدو ونهايته في : ليون الأفريقي ؛ وصف إفريقيا ج1 ، ص : 351 _ 354.

[11] انظر عن جهاد عائلة بني الأحمر عن غرناطة : أحمد بن مُحَمَّد المقري ؛ نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر 1968 ، ج 4 ، ص : 507 _ 529 ، وفيه كذلك ج4 ، ص: 529 _ 548 رسالة بليغة مطولة بعثها أبو عبد الله مُحَمَّد الأحمر آخر ملوك غرناطة إلى سلطان فاس مُحَمَّد الشيخ الوطاسي ، يستعطفه في الإقامة عنده .

[12] إيفان هربك : تفكك وحدة المغرب السياسية ضمن كتاب : تاريخ إفريقيا العام بإشراف : ج.ت.نياني ، اليونسكو 1988 ؛ ج 4، ص : 113 . – وفي كتاب : أحمد توفيق المدني ؛ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ؛ ص : 67 – 71 : بيان لصورة فظيعة لما حدث في هذه الحقبة من أحداث دامت زهاء قرن ونصف . .. ومثل ذلك ما وصفه الحسن الوزان [ليون الإفريقي] عند زيارته لمدينة أنفا من إقليم تامسنا ، بعد دخول البرتغال إليها . انظر : وصف إفريقيا ج 1 ، ص : 197 _ 198 ، وكذلك ج1 ، ص : 99 _ 100 في وصفه لمدينة تدنست بإقليم حاصا .

[13] السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، مرجع سابق ؛ ج4 ، ص : 110-111.

[14] المرجع نفسه ؛ ج4 ، ص: 165 .

[15] المرجع نفسه ؛ ج 4 ، ص : 165 .

[16] نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ، دار الفكر سورية ، ط1، 1985 ؛ ص : 454 _ 455

[17] المرجع نفسه ؛ ص : 453 .

[18] السلاوي : الاستقصا ، المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 148 .

[19] المرجع نفسه ج 4 ، ص : 147 ، وص : 165 . ومُحَمَّد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق : مُحَمَّد حجي ، مطبوعات دار المغرب ،ط2 ، 1977 ؛ ص : 94 .

[20] السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 158 .

[21] السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 157-158 .

[22] ليون الأفريقي : المرجع السابق ؛ ج 1 ، ص : 332 .

[23] مُحَمَّد بن عسكر : المرجع السابق ؛ ص : 96-97 . والسلاوي : المرجع السابق ؛ ج4 ، ص : 144-145 . ومُحَمَّد الصغير الإفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تحقيق : عبد اللطيف الشادلي ، مطبعة النجاح الدار البيضاء ، ط1 ، 1998 ؛ ص : :55- 56.

[24] الإفراني : المرجع السابق ؛ ص 80-81 . والسلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 159 .

[25] المرجع نفسه ؛ ص :55- 56 .

[26] السلاوي : المرجع السابق ؛ ص : 111-112 .

[27] الإفراني : المرجع السايق ؛ ص : 70-71 .

[28] السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 97-98 .

29 مُحَمَّد بن عسكر : دوحة الناشر ؛ المرجع السابق ؛ ص : 46 ، والسلاوي : الاستقصا ، مرجع سابق ج 4 ، ص : 145 ، ومُحَمَّد بن جعفر بن ادريس الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، طبعة حجرية ، دون رقم ط ، دون ت ، ج 2 ، ص : 76 . – وقد أخطأ ابن عسكر في: دوحة الناشر ، ومن تبعه ؛ حين جعلوا اسم السلطان الذي اعتقله هو : مُحَمَّد الشيخ ، وإنما هو ابنه مُحَمَّد البرتغالي كما صوب ذلك كنون في : ذكريات مشاهير رجال المغرب ؛ رقم : 12 " ابن غازي " ، مطبعة كريدماس تطوان ، دون ط ، دون ت ؛ ص : 21 ، وقد نبه على ذلك أيضا الأستاذ : – E . Lévi ProfenÇal في : Les Historiens Des Chorfa ; émile Larse éditeur ; Paris ; p : 227 .1922

[30] أبو عبد الله مُحَمَّد بن المدني كنون : حاشيته على شرح الزرقاني على خليل ، المطبعة الأميرية مصر ، ط1، 1306هـ ، تصوير: دار الفكر لبنان 1978م ؛ ج 5 ، ص : 122 ، وانظر فيه ج 5 ، ص : 28 في وجوب محاسبة الولاة ، ووجوب التصريح بالممتلكات من قبلهم .. وغير ذلك .

[31] – مُحَمَّد كنون : المرجع نفسه ج 5 ، ص : 65 ، وص : 97 .

32 والقول بأن الوطاسيين كانوا تابعين للعثمانيين ؛ غير صحيح ، إذ على الرغم من لجوئهم إلى الأتراك في نهاية عهدهم ، إلا أنهم لم يكونوا تابعين لهم والدليل على ذلك عدم ذكر العثمانيين في سككهم ونقودهم حتى في عهد آخر سلاطينهم . انظر : نيرة رفيق جلال فتحي : نقود بني وطاس بالمغرب الأقصى ، المرجع السابق ؛ ج 2 ، ص : 299 ، ص : 314 .

33 قد كان لبني الأحمر نفوذ كبير على بني مرين قبل نهاية كل منهما ؛ أدى إلى استيلائهم جبل طارق وسبتة وغيرهما؛ راجع : السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4، ص : 68-70 .

34 السلاوي : المرجع نفسه ؛ج 4 ، ص : 120 . وفيه أيضا : تهديد قراصنة البرتغال في البحر الأبيض للمغرب ؛ ص : 143 .

35 عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، دون معلومات الطبع ؛ ج 7 ، ص : 239 . وله أيضا : معركة وادي المخازن الصغرى،مجلة المناهل المغربية ،تصدرها:وزارة الشؤون الثقافية ، الرباط المغرب ، عدد 33 ، ديسمبر 1985 ؛ ص : 126-158 .

36 السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 140 .

37 راجع : قادة دين : الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ ، مجلة عصور الجديدة ، المجلد 7 ، العدد 77، أكتوبر 2017-2018م ؛ ص : 209-210. ونذير روابحي ، مُحَمَّد شبوب : استراتيجية الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566م ، مجلة الباحث 2020/04/12 ؛ ص : 178-179 ، 181. السلاوي : المرجع السابق ؛ ج4 ، ص : 160-161 .

- H.-D. de Grammont. (5 juin 1886.) : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), ernest Leroux éditeur Paris 1887 ;pp 80-81.

38 السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 122-123 .

39 المرجع نفسه ؛ ج 4 ، ص : 147 ، 151 –152 ، 156 .

40 راجع : عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : مُحَمَّد سعيد العريان ومُحَمَّد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة مصر ط1 ، 1949 ؛ ص : 304-306 .

41 عطا علي مُحَمَّد شحاتة رية : اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ، دار الكلمة ، سورية ، ط1 ، 1999؛ ص : 55-56 .

[42] المرجع نفسه ؛ ص : 58 .

[43] المرجع نفسه ؛ ص :57- 58 .

[44] المرجع نفسه ؛ ص : 61 .

[45] انظر : أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، المرجع السابق ، وبالأخص منه ص: 93- 151 .

وقد كان للقرار الذي اتخذه البابا نيكولاس الخامس بتاريخ 8 يناير 1954 أثرا كبيرا ، والذي يخول فيه للبرتغال والإسبان ؛ الاستيلاء على مدن المغرب الكبير ولو بارتكاب الفضائع في حق الناس . راجع ؛ عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، دون طبعة ولا تاريخ ؛ ج 7 ، ص : 233 .

[46] بدأت دولة الأتراك بالجزائر من سنة : 921 هـ _ 1515 م إلى : 1246 هـ _ 1830 م ، راجع: مُحَمَّد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتقديم: الدكتور مُحَمَّد بن عبد الكريم الشركة والوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1981؛ ص : 14 . مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الجزائر وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 م ، دار البعث قسنطينة ، ط1، 1985 ؛ ج 1 ، ص : 60 وما بعدها.

- Mouloud Gaid :L'Algérie Sous Les Turcs ; **Éditeur** Mimouni, Alger,1991

[47] وإن كانت الأبحاث الجديدة والمزودة بالوثائق التاريخية الحاسمة ؛ تؤكد أسبقية المسلمين في اكتشاف القارة الأمريكية والعيش بها . راجع : ناديا ظافر شعبان ؛ الرحالة الاندلسيون كولمبوس واكتشاف اميركا اللاتينية ، دار البلاد لبنان 2017 .

[48] عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ؛ منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، ط3 ، 2006؛ ص : 13-14 ، مع شيء من التصرف .

[49] انظر : أحمد بن سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التعسير ، تحقيق : موسى لقبال ، الشركة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1971 ؛ ص : 55 ، وموسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط 1 ، 1971 م ؛ ص : 81 – 82 .

[50] انظر : ابن خلدون : المقدمة ؛ دار القلم ، لبنان ، ط 7 ، 1989 ؛ ص : 280 -281 : الفصل التاسع والثلاثون في ضرب المكوس أواخر الدولة ، مما يصدق على كثيرا على عصر الوطاسيين .

[51] موسى لقبال : الحسبة المذهبية ، المرجع السابق ؛ ص : 56 ، بتصرف !.

[52] ليون الأفريقي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 250 . – ومن أخطر الظواهر التي أفسدت المعاملات ؛ ظاهرة الاكتناز للنقود، لاسيما عند النبلاء واليهود ، وقد ذكر ليون الأفريقي ، في : وصف إفريقيا ج1 ، ص : 179 – 183 مثالا على ذلك؛ حيث كان حوالي اثنين وأربعين نبيلا يختزنون أكثر من 48 ألف مثقال [48000 . 3.50 غ من ذهب] ، وأنه كان يهودي واحد يختزن أكثر من 50 ألف مثقال !.

[53] وأغلب فقهاء ذلك العصر على تحريمها . مُحَمَّد المدني كنون ؛ حاشية كنون ، المرجع السابق ج 5 ، ص: 113 – 114 .

[54] مُحَمَّد مُحَمَّد جمال : موسوعة الاقتصاد الإسلامي ، دار الكتاب المدرسي ، مصر ، 1400 ؛ ص : 483 – 484 .

[55] موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، المرجع السابق ؛ ص : 55 .

[56] موسى لقبال : المرجع نفسه ؛ ص : 55 ؛ نقلا عن كتاب العقباني المذكور أعلاه ، وتوجد منه نسخ مخطوطة ؛ منها بالجزائر ، بالمكتبة الوطنية برقم 1353 ، وبالرباط بالمكتبة العامة برقم : 2577 ؛ وقد اطلعت عليهما فيهما ، وهو مطبوع يحتاج إلى تحقيق علمي حافل راجعه . مُحَمَّد بن أحمد العقباني التلمساني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق : علي الشنوفي ، Extrait du bulletin d’études orientales de l’institut française de Damas tome xix ; 1967

[57] نيرة رفيق جلال فتحي : المرجع السابق ؛ ص : 313 .

[58] انظر مثالا على ذلك : محاولات بعض العلماء وتلاميذهم للنهي عن شرب الخمر دون جدوى ، في : ليون الأفريقي؛ المرجع السابق ؛ ج1 ، ص : 339 ، ومثالا كذلك في ج1 ، ص : 332 عن منكبة جبل آهل بالسكان ، وما حدث للطلبة والعلماء فيه من تقتيل ومصادرة للكتب من طرف لص مدعم من قبل مُحَمَّد البرتغالي سلطان فاس سنة 918هـ ، ومثالا ثالثا في ج1 ، ص: 341 ؛ عن معصية التولي يوم الزحف التي حدثت في مدينة مليلية ، وبسببها لاتزال تحت الاحتلال إلى الآن ! ..

[59] مُحَمَّد كنون : حاشية سيدي مُحَمَّد كنون ، المرجع السابق ؛ ج5 ، ص : 5 . – ويلاحظ أن المعاصي والآفات الاجتماعية لم تكن مقتصرة على آحاد من الأفراد ؛ بل تواترت إلى أقاليم ونواح متعددة ، وقد ذكر ليون الأفريقي : أن ظاهرة شرب الخمر انتشرت وعمت بإقليم الريف ؛ وصف إفريقيا : المرجع السابق ج1 ،

ص : 124 ، وبجبال الهبط ؛ ج1 ، ص : 320 ، وعن انتشار الخيانة الزوجية انظر فيه : ج1 ، ص: 330 ، وعن الوحشية بين القبائل انظر : ج1 ، ص : 334 .

[60] مُحَمَّد بن أحمد الرهوني : حاشية الرهوني على شرح الزرقاني لمختصر خليل ، المطبعة الأميرية مصر ط1 ، 1306 هـ ، تصوير: دار الفكر لبنان ، 1978 م ؛ ج 3 ، ص : 250 .

[61] ليون الأفريقي : وصف إفريقيا ، المرجع السابق ؛ ج 1 ، ص : 247 ، وانظر فيه أيضا : ج1 ، ص : 250 .

[62] انظر : المرجع نفسه ؛ ج1 ، ص : 233 .- وقد ذكر ليون الافريقي – الحسن الوزان – أيضا : أنه يوجد خارج فاس من جهة الغرب ربض يضم نحو خمسمائة كانون [عائلة] يقطنه السّفلة ، وتكثر فيه البغايا والمناكر !! .. وصف إفريقيا ج1 ، ص : 277 .

[63] المرجع نفسه ج1 ، ص : 158 – 159 .

[64] انظر : المرجع نفسه ج1 ، ص : 252 – 253 .

[65] موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، المرجع السابق ؛ ص : 54 – 55 ؛ بتصرف . وانظر : العقباني ؛ المرجع السابق ؛ ص : 114 ، ص، 116 .

[66] انظر بتفصيل أكثر ؛ مصطفى أبي ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين ، المرجع السابق ؛ ص : 194 – 203 .

[67] المرجع نفسه ؛ ص : 202 – 203 . والسلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 116 .

[68] انظر : مُحَمَّد عيسى الحريري : المرجع السابق ؛ ص : 324 _ 325 ، وليون الأفريقي ؛ المرجع السابق ج 1 ، ص : 225 .

[69] ليون الأفريقي : المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 225 – 226 – 227 ، بتصرف ..

[70] انظر : مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني ؛ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق : ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط1 ، 1981 ؛ ص : 405 – 407 . مُحَمَّد عيسى الحريري : المرجع السابق ؛ ص : 324 _ 325 . ليون الأفريقي : المرجع السابق ؛ ج1، ص : 225 .

[71] حسب الوزان ؛ فإن مرتباتهم بين : 100 مثقال ، و200 مثقال ، وهي ضعيفة عنده . وصف إفريقيا ج1 : ، ص : 227 ، والوضعية نفسها تحدث عنها في مكناس ج1 ، ص : 132 .

[72] ليون الأفريقي : المرجع نفسه ، ج 1 ، ص : 227 .

[73] المرجع نفسه ؛ ج 1 ، ص : 224 ، بتصرف .

[74] المرجع نفسه ؛ ج 1 ، ص : 224 – 225 بتصرف .

[75] المرجع نفسه ؛ ج 1 ، ص : 261 بتصرف .

[76] مُحَمَّد ابن غازي : إرشاد الحبيب إلى مقاصد حديث الحبيب ، تحقيق : مُحَمَّد التمسماني ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط1 ، 1989 ؛ ص : 14 في القسم الدراسي منه .

– وقد ذكر الحسن الوزان [ليون الإفريقي] الذي شهد عصر الوطاسيين أن أهل فاس يخرجون بعد عيد الفطر من كل سنة إلى مدينة تاغية لزيارة ضريح الولي بوعزة ، وهم في جموع كثيرة رجالا ونساء وأطفالا ، وكأنهم جيش زاحف .. وتستغرق الرحلة خمسة عشر يوما ذهابا وإيابا .. وصف إفريقيا : المرجع السابق ؛ ج1 ، ص : 205 . – وفي جزولة ؛ كانت تعقد الهدنة بين القبائل المتصارعة ثلاث ليال كل أسبوع !! بمباركة ولي صوفي ، وبعدها يستمر القتال بينهم بكل وحشية ودموية !!! . ليون الأفريقي : المرجع السابق ج 1 ، ص : 144 – 146 .

[77] انظر مثلا الكتب الواردة في : ابن غازي ؛ التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد (فهرس ابن غازي)، تحقيق : مُحَمَّد الزاهي ، دار بو سلامة ، تونس ، ط1 ، 1984 ؛ ص : 242 – 256 .

[78] انظر : مُحَمَّد عيسى الحريري : المرجع السابق ؛ ص : 349 _ 350 ، ومُحَمَّد ابن غازي : فهرس ابن غازي ؛ ص : 78 ، المقري : نفح الطيب ، المرجع السابق ؛ ج 6 ، ص : 210 .

[79] وفي هذا العصر برزت ظاهرة الشعر العامي في مختلف الموضوعات ، ولا سيما في الحب ووصف النساء والغلمان دون حياء أو خجل !!.. إلا أنه قد كان بعض من الشعراء ينظمون كل سنة بمناسبة عيد المولد النبوي قصايد في مدح النبي _ ﷺ _ ، وينالون بذلك جوائز .. انظر : ليون الأفريقي ، المرجع السابق ؛ ج 1 ، ص : 260 ، وعبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، دون تاريخ وعدد الطبع ؛ ج 1 ، ص : 223 .

[80] الذي أصبحت له اتجاهات سياسية واضحة وقوية ، انظر : ألفرد بل ؛ الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط 2 ، 1981 ، ص : 426 _ 427 .

[81] وقد انتشرت مهنة العرافة والكهانة من نساء ورجال كثيرا في هذا العصر ؛ لا سيما في فاس ، وكان لها تأييد عريض من طرف عوام الناس ، رغم ما يمارسونه من شذوذ أخلاقي ، وكذلك أصبح للسحر ومخاطبة الأرواح قواعد يتعلمها البعض لينخرطوا في سلكه ، ويكون لهم به مصدر رزق ، وربما تعرضوا للسجن أحيانا بسبب تعاطيهم لها .. انظر: ليون الأفريقي؛ المرجع السابق ج 1، ص : 262 – 267 .

[82] انظر: مُحَمَّد كنون ؛ حاشية كنون ، المرجع السابق ؛ ج 5 ، ص : 66 .

[83] موسى لقبال : المرجع السابق ؛ ص : 109 . – والجدير بالتأمل أن هذا العصر ولع فيه فئة من رجال العلم بالإجازة والأسانيد ؛ دون سعي للتحصيل أو حفظ أو تفهم ، حتى لما طلب الإمام ابن غازي (ت : 919 هـ) للإجازة ؛ كتب فهرسة شيوخه، وسماها : التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد، وهذا العنوان مفعم بالحسرة على ضياع العلم ، والحرص على الاهتمام بالشكل والرسم ، دون المضمون والأصل !! .

[84] مُحَمَّد كنون : الحاشية ، مرجع سابق ج 3 ، ص : 142.

[85] ابن غازي : فهرس ابن غازي ، المرجع السابق ؛ ص : 169 وما بعدها . – وانظر عن عائلة ابن مرزوق في مقدمة الدكتورة : ماريا خيسوس بغيرا ، لكتاب : المسند الصحيح الحسن ص : 15_ 19 .

[86] ابن غازي : فهرس ابن غازي ، المرجع السابق ؛ ص : 126 و 145 ، وما بعدها .

[87] انظر : – أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981 ، ط1 ، ج 2 ، ص : 72 . – مُحَمَّد بن عمر الطمار : تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط؟، 1984 ؛ ص : 221 – 227 .

– ويلاحظ أن أول من أدخل مختصر العلامة خليل إلى فاس ؛ هو أبو عبد الله بن الفتوح ، وكان من تلمسان.. انظر؛ ابن غازي : المرجع نفسه ؛ ص : 75 – 76 .

[88] وقد ذكر ابن خلدون في نهاية : مقدمته ، المرجع السابق ؛ ص : 588 ؛ أنه أنهى تأليفها سنة 779 هـ، ومعلوم أن وفاته كانت سنة : 808 هـ . بدر الدين القرافي : توشيح الديباج وحلية الابتهاج ، تحقيق : أحمد الشتيوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1983؛ ص : 118 – 119 .

[89] انظر؛ عبد الحميد البطريق ، وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوربي الحديث ، دار النهضة العربية ، ط؟ ، 1971 ؛ ص : 321 – 325 .

[90] انظر ؛ أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط؟، 1983؛ ص : 232 ، ومُحَمَّد الطمار : تلمسان عبر العصور ، المرجع السابق ؛ ص : 216 . – وكتائب بدائع السلك ؛ طبع محققا في جزئين من طرف د. مُحَمَّد بن عبد الكريم الجزائري بتوجيه من الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى.

[91] عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، المطبعة الوطنية ، الرباط ، ط1 ، 1932، ج 4 ، ص : 10 – 11 .

[92] المرجع نفسه .

[93] راجع أمثلة من ذلك : كيف كانت الملامتية – وهي طائفة من المتصوفة على جانب من كبير من الانحراف لاتصالهم بالجن واستعانتهم بهم في جلب الأخبار والتلبيس على الناس – كيف كان لها الأثر المباشر على تسيير الشأن العام ، في : السلاوي : المرجع السابق ؛ ج 4 ، ص : 152-153 ، ص : 158 .